الحلقة (٢٢)

سيكون الحديث في هذه الحلقة عن قول الطحاوي رحمه الله "**بلا كيفية**" فقوله بلا كيفية أي: لا تعرف كيفية تكلمه سبحانه به، قولا ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحياً، أنزله عليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم من الملك، وقرأه على الناس، يقول الله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ويقول الله تعالى {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} **وفي ذلك إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى**، وقد استشكل على ذلك من المخالفين على أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر وإنزال الحديد وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام، كما جاء في القرآن،

ويجاب على ذلك **أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله** قال تعالى: **{**حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**}** ويقول الله تعالى: **{**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**}** ويقول تعالى: **{**تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**}** ويقول تعالى: **{**تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**}** ويقول تعالى: **{**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**}** ويقول تعالى: **{**فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}** ويقول تعالى: **{**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**}** ويقول تعالى: **{**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**}****وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء** يقول تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} **والسماء : العلو، وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن السحاب، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق** فكيف يشتبه هذا الإنزال بهذا الإنزال، وهذا الإنزال بهذا الإنزال؟ فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقيل إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال أنزل ولم ينزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفل، وعلى هذا فيحتمل قوله تعالى **{**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ**}** وجهين:

- أحدهما: أن تكون "من" لبيان الجنس،
- والثانية أن تكون "من" لابتداء الغاية، وهذان الوجهان يُحتملان في قوله تعالى **{**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا**}**.وقول الطحاوي رحمه الله "**وصدّقه المؤمنون على ذلك حقا**" الإشارة إلى ما ذكره من التكلم به على الوجه المذكور وإنزاله، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهم السلف الصالح، وأن هذا حق، قوله "**وصدقه المؤمنون على ذلك حقا**" صدقوه على ما ذكر من التكلم به على الوجه المذكور وإنزاله أيضا، وأن هذا هو قول الصحابة والتابعين وهم السلف الصالح.

قول الطحاوي رحمه الله "**وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية**" رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول، **ظاهر**، وفي قوله "**بالحقيقة**" رد على من قال: إنه معنى قائم بذات الله تعالى لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به إن هذا كلام حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلما، وللزم أن يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يسميه أحد أخرساً ولكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائم بنفسه لم يسمع منه حرفا ولا صوتا، بل فهم معنى مجردا ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه بالعربي، أو أن الله خلق في بعض الأجسام كالهواء الذي هو دون الملك هذه العبارة، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ويقال لمن قال: إنه معنى واحداً، هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله، وفساد هذا ظاهر، وإن قال بعضه، فقد قال يتبعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه، ولما قال تعالى للملائكة {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} ولما قال {اسْجُدُوا لِآدَمَ}وأمثال ذلك هل هذا جميع كلامه أو بعضه، فإن قال إنه جميعه فهذا مكابرة، وإن قال بعضه فقد اعترف بتعدده.

الأمر الآخر الذي سوف نتحدث عنه في هذه الحلقة هو مذاهب الناس في مسمى الكلام والقول، وقد قدمت في الحلقة الأولى نبذة عن صفه الكلام.

الناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق على أربعة أقوال:

- القول الأول: **أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا** كما يتناول لفظ الإنسان: "الروح والبدن معا"، وهذا هو قول السلف.
- القول الثاني: **أنه اسم للفظ فقط والمعنى ليس جزءُ مسماه، بل هو مدلول مسماه**، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم قالوا إنه اسم للفظ فقط، والمعنى ليس جزءُ مسماه بل هو مدلول مسماه.
- القول الثالث: **أنه اسم للمعنى فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز لأنه دال عليه**، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.
- القول الرابع: **أنه مشترك بين اللفظ والمعنى**، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية، والكلابية لهم قول آخر يروى عن أبي الحسن **أنه مجاز في كلام الله وحقيقة في كلام الآدميين**، لأن حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائم بغير المتكلم، بخلاف كلام الله فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه، وهذا مبسوط في موضعه.

أما من يقول إنه معنى واحد واستدل عليه بقول الأخطل يقول:

لا يعجبنك من خطيب خطبة ** حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ** جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاستدلال بكلام الأخطل فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقال المخالفون هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به، فكيف بشاعر ليس على ملة المسلمين، فكيف وهذا البيت قد قيل أن هذا البيت مصنوع منسوب للأخطل وليس في ديوانه، وإنما قال: إن البيان لفي الفؤاد، ولم يقل: إن الكلام لفي الفؤاد.

وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته فإنه لا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى -والأخطل نصراني- قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت أي: شيء من الإله بشيء من الناس، فيُستدل بقول النصراني على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب، وأيضا فمعنى قول الأخطل غير صحيح، إذ لازِمُه أن الأخرس يسمى متكلما، لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يُسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، تكلم عنه شيخ الإسلام رحمه الله، وتكلم عنه ابن القيم رحمه الله، أيضا في الرد على مثل هذا، وتكلم أهل السنة قبلهم في الرد على مثل هذه الاستدلالات، كاستدلالهم بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما**جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

وهذا معنى عجيب، وهو أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت، فإنهم يقولون أي النصارى، كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وإنما النظم المسموع مخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه، فقد ذكر شيخ الإسلام في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله صلى الله عليه وسلم (إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس) وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة).

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيويه وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك، فعلم اتفاق علماء المسلمين على أن هذا ليس بكلام، وأيضا في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرّق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضا ففي السنن أن معاذ رضي الله عنه قال يا رسول الله "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم).

فبين أن الكلام إنما يكون باللسان، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظا ومعنى، ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع ثم انتشر، ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر يستدل به، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك، ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق، فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعر، فإن الله تعالى يقول {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } أَفَتُراه سبحانه وتعالى يشير إلى نفسه أو إلى هذا المتلو المسموع؟ عندما يعجزهم يشير إلى ما في نفسه أو إلى هذا القرآن المتلو المسموع؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع، وقوله تعالى: { لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } أفتُراه سبحانه وتعالى يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الباري عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه، فإن قالوا عندما أعجزهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا، فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء مثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية، لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟! ويكون التالي في زعمهم قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت ولا حرف، وليس القرآن إلا سورا مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة، يقول { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } ويقول { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } ويقول تعالى: { فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ } ويكتب لمن قرأه بكل حرف منه عشر حسنات يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (أما إني لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) وهو المحفوظ في صدور الحافظين، المسموع من ألسن التالين، يقول الشيخ حافظ الدين أبو البركات النسفي في المنار: "**إن القرآن اسم للفظ والمعنى**"، وكذا قال غيره من أهل الأصول، وما ينسب إلى أبي حنيفة رحمه الله أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزأه، فقد رجع أبو حنيفة عنه، وقال: " **لا تجوز القراءة مع القدرة بغير العربية**"، وقالوا لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنونا فيداوى، أو زنديقا فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه